عوامل هجرة المدارس النقدية الغربية إلى الساحة النقدية العربية

The External Factors of the Western Critical Schools Migration to the Arab Critical Scene.

د. دواس أحســــن
(جامعة 20 اوت1955– سكيكدة)
Email : hassen.douas@gmail.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 14–2017 ص ص. 111 – 128

الملخص

شكلت دراسة تأثير المدارس النقدية الغربية ومناهجها على النقد العربي ظاهرة لافتة في الدراسات العربية ابتداء من القرن الماضي، مما استدعى دراسات منهجية أخرى تحاول وضع الاطر النظرية والمنهجية لمثل هذه الدراسات، وتعد هجرة النظريات وعوامل انتقالها من الوسط الغربي إلى الوسط العربي حلقة مهمة في دراسات التأثير والتأثر وفي هذه المقالة نحاول تسليط الاضواء على أهم العوامل الخارجية التي أسهمت في انتقال المدارس النقدية الغربية إلى الوطن العربي كسطوة اللسان الشكسبيري والإرساليات التبشيرية والاستشراق.

الكلمات المفتاحية *: : هجرة المدارس، المدارس النقدية، العوامل الخارجية، سطوة اللسان الانجليزي، الاستشراق، البعثات التعليمية،*

Abstract

The study of the influence of Western schools of criticism and their methods on the Arab criticism formed a remarkable phenomenon in the Arab studies from the beginning of the last century, and that is what led to the emergence of other studies trying to put the theoritical and methodological frames of such studies, and the migration of theories and the factors of their movement from the western enviroment to the Arab one, is considered as an important link in the studies influence and impact. In this article, we try to highlight the most important external factors that contributed to the transmission of the the western schools of Criticism to the Arab world such as the ascendancy of the Shakespearean tongue, missionaries and Orientalism.

Keywords *: School migration, Critical schools, external factors, English Language dominion, Orientalism, educational missions.*

المقدمة

إن دراسة أثر النقد الغربي تستدعي المرور على محطتين ضروريتين لا يمكن تجاوزهما، وتتمثلان في دراسة العلاقة والتفاعل بين النقدين الغربي والنقد العربي، كمحطة أولى، ثم العوامل التي ساهمت في انتقال هذه النظريات النقدية من البيئة الغربية إلى البيئة العربية. فنحن كما يقول شوقي ضيف: "نحتاج في دراستنا لأدب أي أمة من الأمم إلى معرفة الأحداث الكبرى التي أثرت في حياة منشئيه؛ لأن الأدب في حقيقته مرآة ناصعة صافية تنعكس عليها حياة أهله وما تأثروا به من أحداث عامة وظروف خاصة"(شوقي ضيف، 1992، ص11). وما ينطبق على الأدب ينطبق على النقد، فهو الآخر مرآة تعكس طبائع الأقوام، وفكر المجتمعات. والظواهر الأدبية والظواهر الفكرية والنقدية بمثابة الكائنات التي تولد وتترعرع كنتاج لسياقات حضارية وتاريخية وثقافية واجتماعية معينة، وتنطبق هذه النواميس المنتجة للمدارس والمصطلحات والاتجاهات على أي مدرسة من مدارس النقد سواء أكانت سياقية أم نصانية، وقد تضافرت مجموعة من الظروف والعوامل التي أسهمت في خلق هذا التيار النقدي في الوسط العربي.

وقصد وضع معالم أي مدرسة نقدية في إطارها الواضح وضمن سياقاتها التي أُفرزت كنتيجة حتمية لجملة من المعطيات وقصد إعادة أقلمة هذه المدرسة النقدية في التربة العربية، ليس كمصطلحات نقدية لا تتعدى بناها اللغوية مرتبطة بمضامين وتوجهات نقدية معينة فحسب، وإنما بصفتها جزء مهما من بنية ثقافية تتعالق خيوطها ضمن نسيج حضاري شامل، وجب الوقوف على ظروف الانتقال والهجرة من الغرب إلى الشرق.

ثم إن فهم التحولات التي عرفتها الساحة النقدية العربية يقتضي التعرف على عوامل هذه التحولات، ورصد المعايير والآليات التي تم من خلالها هذا التحول، سواء

على المستوى الفردي أي بالنسبة للنقاد العرب الذين عملوا على إرساء قواعد المدرسة، أو على المستوى العام للمنظومة الفكرية والنقدية في المجتمعات العربية وعلاقتها بالآخر.

يمكن تقسيم هذه العوامل التي ساهمت في انتقال التيار الغربي عموما – فكرا وفلسفة وأدبا ونقدا – والمدارس النقدية على وجه الخصوص إلى قسمين؛ عوامل داخلية تنبع من خصوصية الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للوطن العربي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، على غرار البعثات إلى الخارج والتفاعل المباشر مع المنجز النقدي الغربي، والمدارس والمؤسسات التعليمية والجامعية والصحافة والإعلام، إلى جانب ازدهار الترجمة والطباعة ودور النشر وتلك المعارك والخصومات النقدية والأدبية التي انتشرت على صفحات الجرائد والمجلات المتخصصة وعوامل خارجية كان للغرب اليد الطولى في توفيرها وتوفير أسباب وجودها. وستقتصر مقالتنا هذه على تبيان هذه العوامل الخارجية.

إن العوامل الخارجية هي تلك العوامل التي أفرزتها ظروف سياسية واقتصادية وحضارية تخص المجتمعات الغربية، وبخاصة المجتمع الأوروبي والمجتمع الأمريكي، ولم تؤثر هذه العوامل في العرب فقط وإنما اثرت في باقي شعوب العالم الأخرى، اجتمعت فيما بينها وساعدت على انتشار التيار الغربي بأفكاره الفلسفية ومذاهبه الأدبية ومناهجه النقدية. وسنتطرق إلى أهم هذه العوامل والمتمثلة في سطوة اللسان الانجليزي، والإرساليات التبشيرية، والاستشراق.

1 – سطوة اللسان الانجليزي

إذا كان صمويل دبليو أوديل Samuel W. Odell يعلن في روايته الاستشرافية الموسومة بـ: "الحرب الأخيرة أو انتصار اللسان الإنجليزي" The Last War, or The

Triumph of the English Tongue والتي نشرت سنة 1898 أن "العرق الإنجليزي قد غزا الكرة الأرضية. ومما سهل انتصار اللسان الإنجليزي هو تسخير 1500 مركبة جوية محملة بالقنابل، تنفث نارا بدائية لا تنطفئ. وعند إحساسهم بهذا الموت المحقق القادم من السماء، يقرر الناطقون باللغات مثل الفرنسية والألمانية والصينية أن يترجموا أنفسهم إلى لغة القوة الجوية العظمى"(محمود منقذ الهاشمي، 2010، ص13) وإذا كانت المملكة المتحدة هي الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس على مدار قرون من الزمن، امتد فيها نفوذ الإنجليز وسطوتهم ولسانهم من أوروبا إلى إفريقيا إلى الهند إلى العالم الجديد؛ الولايات المتحدة الأمريكية بكل ما تتمتع به من قوة عسكرية وسياسية واقتصادية. وإذا علمنا أن العديد من البلدان العربية كانت مستعمرات إما فرنسية أو إنجليزية فلا بد أن يكون لهذه المعطيات تأثيرا في بلورة فكر عربي جديد.

ومما زاد من سطوة اللغات الأجنبية ونشر الثقافة الغربية سياسة التعليم التي انتهجها المحتل سواء المحتل الفرنسي أو المحتل الإنجليزي وذلك من خلال اعتماد لغة المستعمر لغة رسمية في المدارس والمؤسسات التعليمية. ففي مصر وعند دخول الإنجليز الأراضي المصرية عاينوا سيطرة اللغة الفرنسية فيها" فحاول كرومر عن طريق فرض سياسة تعليمية جديدة أن ينشر الثقافة الإنجليزية، بعد أن فشلت مهمة الإرساليات في نشر هذه الثقافة (عمر الدسوقي، ص15)، حيث صدر قرار عام 1886م الذي نصّ على أن تكون لغة التعليم في مصر هي اللغة الإنجليزية، وأطلقت يد إنجلترا في مصر بعد معاهدة عام 1904م بين إنجلترا وفرنسا وأخذ نفوذ الثقافة الفرنسية بالتقلص، وأصبح لا مجال للطالب لإكمال دراسته العليا إلا بإجادة اللغة الإنجليزية. (الدسوقي، ص 35) فازداد الاهتمام بهذه اللغة وتمكن الطلبة من أسرارها حتى أجادوها واتسعت معارفهم بها وبخاصة طلبة المراحل المتقدمة في الجامعات والمعاهد.

يقول عمر الدسوقي عن أثر هذا النظام التعليمي في مصر: " فصارت اللغة الإنجليزية هي اللغة الأولى بالمدارس المصرية بمقتضى المعاهدات المختلفة ونفوذ إنجلترا السياسي، وصار الطالب المصري يعرف الكثير عن الأدب الإنجليزي، ولا يكاد يعرف شيئا عن الأدب الفرنسي، ثم أدى إنشاء الجامعات المصرية الحديثة إلى تخصص بعض الطلاب في اللغة الإنجليزية ليكونوا مدرسين متمكنين فيها، وحلوا محل خريجي المعلمين العليا " (الدسوقي: ص 50)، ففتحت أقسام اللغة الإنجليزية، التي أدت بالطالب إلى التعامل مباشرة مع النصوص الأدبية والنقدية الإنجليزية والتقرب أكثر إلى عوالم كتابها ومرجعياتهم الفكرية والفلسفية.

ولم تكن سيطرة اللغة الإنجليزية وثقافتها مقتصرة على مصر فحسب، وإنما امتدت إلى معظم الأقطار العربية حيث ارتبطت الهجرة إلى أمريكا بإجادة اللغة الإنجليزية، مما دفع عدداً من السوريين إلى تعليم أنفسهم وأبنائهم هذه اللغة.(حلمي مرزوق، 1983م، ص 233)

إن سطوة اللغة الإنجليزية نابعة من امتياز ثقافي ولساني وحضاري، ولأن من يرتوي من النبع ليس كمن يرتوي من الخابية كما يقول ليوناردو دا فينشي، فقد ساهم الكتاب الإنجليز والأمريكيون في انتشار اللسان الإنجليزي من خلال روائعهم الإبداعية والفكرية والنقدية؛ رواية وشعرا ومسرحا وفلسفة ونقدا. والتي فتحت شهوة القراءة في صورتها الأصلية للكتاب العرب، وكثير من المجددين كالعقاد والمازني وشكري وأحمد زكي أبو شادي ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وغيرهم، هم ممن تعلموا اللغة الإنجليزية وأتقنوها بالمدارس والمعاهد والجامعات. وانطلاقا من هذا الامتياز درس الكتاب والنقاد العرب اللغة الإنجليزية و أجادوها إلى حد بعيد ونظرة سريعة إلى قائمة مراجع مؤلفاتهم تؤكد اطلاعهم على أمهات الكتب النقدية والفكرية الإنجليزية لأغلب

المؤلفين، بل إن بعضهم كتب بالإنجليزية شعرا ورواية ونقدا. ومن النقاد الجدد الذين كتبوا باللغة الإنجليزية نذكر على سبيل المثال جبرا إبراهيم جبرا كتب رواية " Passage in the Silent Night" عام 1946، وحملها معه إلى كمبردج مرقونة على الآلة الكاتبة، ووزع نسخاً منها على زملائه في الجامعة، ولم تصدر في صورتها العربية إلا عام 1955 بعنوان: "صراخ في ليل طويل" بعد أن أعاد كتابتها باللغة العربية،

ولم تكن كتابات جبرا باللغة الإنجليزية تقليدا، أو تبجحا أو تماشيا مع الوسط الإنجليزي، ولكنها كانت من منطلق أنه أجاد هذه اللغة واستغرق في عوالمها السحرية، ومن شعوره العميق بقدرة هذه اللغة على استيعاب أفكاره، لما تزخر به هذه اللغة من طاقات تعبيرية هائلة، ويعترف مرة أخرى جبرا إبراهيم جبرا في إحدى حواراته فيقول:

"فقلت: سأكتب بالإنكليزية، وكنتُ أشعر أن كتابتي بها تجعل ذهني أكثر اتساعاً وطاقتي على التعبير لا تقتصر عن أي شيء تريد تناوله..... وبعد ذلك بدأت في كتابة بعض القصص والمقالات بالعربية وكنتُ أشعر أنها ليست الشيء الذي أريد أن أكتبه"(سليمان حسين، 1999، ص38) بل ويذهب جبرا إلى أبعد من هذا في تعظيم اللغة الإنجليزية إلى القول بأن الفضل في كتابته باللغة العربية يعود لهذه اللغة الساحرة، ويعرب عن فرحته باتخاذها لغة للكتابة بقوله: "فرحت بالكتابة الإنكليزية والكتابة بالإنكليزية علمتني الكتابة بالعربية"(جريدة الحياة، ص38).

كما كتب في الدراسات بالإنجليزية أيضا "الفن في العراق" عام 1961 و"جذور الفن العراقي اليوم"، الذي أصدره عام 1983،كما كتب عبد الواحد لؤلؤة كتاب: "الشعر العربي الأندلسي وتطور الشعر الغنائي الأوروبي" Arabic Andalusian Poetry and the Rise of the European Love-Lyric والذي صدر سنة 2003، وكتب عبد العزيز حمودة "مقدمة لمدينتنا"Introduction To our Town سنة 1970 و"المشكلة مع ألبي"The problem with Albee سنة 1978، وغيرها من الأعمال.

2- **الإرساليات التبشيرية** :

كان الدين ولم يزل المحرك الأكبر للغرب في مدهم العقدي، ومحاولة بسط سيطرتهم على العالم العربي وكانت الإرساليات التبشيرية تحت غطاء الرحلات الاستكشافية أو الدراسات الأنثروبولوجية وسيلة من وسائل المحتل لبسط سلطانه وسلطان نصرانيته. وبالرغم ما لهذه الإرساليات من خطر على العقيدة الإسلامية، فإنها كانت إحدى الوسائط المهمة في ارتحال الفكر الغربي والنظريات الفلسفية والأدبية، فقد ساهمت بشكل ملفت في تفشي التأثير الغربي والإنجليزي بالخصوص.

ففي مصر يعود تاريخ أول بعثة أمريكية سنة 1855م، حيث اتخذت هذه البعثة من مدينة القاهرة مقرا لها " ودأبت في جد وحرص على نشر رسالتها في جميع أرجاء مصر، والشرق العربي، تؤيدها الأموال الأمريكية الطائلة الإرساليات التربوية الحديثة، ولم تدع عاصمة من عواصم القطر، بل ولا مركزا مهما من مراكزه إلا وأسست فيه فرعاً ومدرسة تنشر تعاليمها، حتى وصل عدد مدارسها في سنة 1937 إلى ما يزيد عن اثنتين وأربعين مدرسة بها ما يزيد على 6914 تلميذا وتلميذة " (الدسوقي، ص 12-13)

أما في سوريا ولبنان فقد ساهم الصراع بين المذهبين البروتستانتي والكاثوليكي ابتداء من القرن التاسع عشر على فرض سيطرتهما على الشرق ومحاولة البروتستانتيين إلى جانب اليسوعيين والدومينيكان توسيع نفوذهم بالمنطقة في نقل كثير من المظاهر الحضارية للغرب، من خلال تأسيس المدارس والمؤسسات الثقافية التي أسهمت في بعث النهضة الفكرية والأدبية والنقدية، إذ أصبح لبنان مسرحاً لتيارات أوروبية متعددة، وساعدت هذه الإرساليات على أن يكون لبنان أسرع استجابة من أي بلد عربي إلى دعوات التجديد بحكم الأكثرية المسيحية فيه.(منيف موسى، ص136)

فظهرت أصوات عديدة تنادي بالتجديد من خلال التفتح على النظريات والمناهج الغربية.

2 – الاستشراق:

يشير المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون Maxime Rodinson إلى أن مصطلح الاستشراق ظهر في اللغة الفرنسية عام 1799، وتأخر ظهوره في اللغة الإنجليزية إلى عام 1838، وأن الاستشراق إنما ظهر للحاجة إلى "إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق" ويضيف بأن الحاجة كانت ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية (شاخت وبوزورث، 1978م، ص27–101)

أما إدوارد سعيد الذي تناول هذا المصطلح بالتشريح والدراسة فقد عرفه على أنه: أسلوب في التفكير مبني على تميّز متعلق بوجود المعرفة بين 'الشرق' (معظم الوقت) وبين الغرب"(Edward Said,1979 p2.) ويضيف سعيد بأن الاستشراق ليس مجرد موضوع سياسي أو حقل بحثي ينعكس سلباً باختلاف الثقافات والدراسات أو المؤسسات وليس تكديساً لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق ... إنه بالتالي توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية وفي فقه اللغة(Edward Said, p12). وفي موضع آخر يعرف سعيد الاستشراق بأنه المجال المعني أو العلم الذي يُتوصل به إلى الشرق بصورة منظّمة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق(Edward Said:p73)..

ومعظم هذه التعاريف تصب في أن الاستشراق هو دراسة الحضارات الشرقية ولغاتها وعاداتها، وهو كل ما له علاقة بهذه الشعوب، غير أن الغريب أن هذه الشعوب التي يقصدونها هي كل الشعوب الآسيوية وكل شعوب شمال إفريقيا، بما لكل شعب من خصوصيات حضارية وثقافية واجتماعية.

استفحل تأثير المستشرقين في البلاد العربية، وتنامى مدهم حتى غدت لهم في كل مسألة يد، وفي كل مقولة لسان، مما دفع أحد الكتاب المعاصرين إلى القول: " إن الدراسات الأدبية، وتاريخ الأدب بصورته التي نعرفها اليوم، هي أثر من آثار المستشرقين وحسنه من حسناتهم، ولا تعجب، فالكتب العربية منذ طبقات ابن سلام الجمحي وما أتى بعده من كتب التراجم كمعجم الأدباء لياقوت، ووفيات الأعيان لأبن خلكان، لم تبحث في الأسباب والعلل والنتائج والبيئة والظواهر السياسية والاجتماعية وتفاعل الأديب وعصره كما نرى اليوم في الدراسات الأدبية، وإنما كان الأديب وحدة منفصلة لا تربطه بغيره روابط.(الدسوقي، ص385.)

ويقول ناقد آخر عن أثر المستشرقين في الأدباء والنقاد في مصر: "أصبح الأدباء في مصر ينهجون نهج المستشرقين في دراسة الأدب ونقده ويؤلفون المؤلفات على مذهبهم، ويعدون مثلهم البحوث، بل إن ما بلغه بعضهم من زعامة في الأدب ما كان إلا بتأثرهم بالمستشرقين، وأول هؤلاء طه حسين فهو ثمرة من ثمرات الاستشراق، درس عليهم في الجامعات المصرية، وتأثر بهم وهجر منهجه القديم في دراسة الأدب الذي عرفه عن أستاذه حسين المرصفي في أروقة الأزهر".(عز الدين الأمين، ص101)

وبالرغم من المغالطات التي قصدها المستشرقون قصد تشويه التراث العربي الإسلامي، أو الأخطاء التي وقعوا فيها جراء جهلهم بالخلفيات الحضارية والثقافية للفكر والأدب العربيين، فلا يمكننا أن نجحف حقهم في أسبقية الطرح وأثرهم في تجديد الفكر العربي وفتح آفاق جديدة أمام النقاد والأدباء العرب ليدخلوا عوالم أدبية ونقدية ما كان بمقدورهم دخولها لولا ذلك التداخل الحضاري والثقافي بينهم وبين المستشرقين.

وانطلاقا من ذلك التمازج في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر بدأ النقاد والكتاب العرب بطرح أفكار جديدة متصلة بالموروث الغربي النقدي والأدبي ومتأثرة بتلك الاتجاهات الفكرية والنقدية الغربية، ووضعت بعض هذه الدراسات يدها على الجرح بتشخيص واقع الأدب العربي وما يعانيه من جمود في مقابل ما وصل إليه الأدب الغربي من تطور على الصعيدين الإبداعي والنقدي. وبدأت الدعوات الجديدة إلى الالتحام مع الفكر الغربي واتباع مناهجه وطرائقه في البحث.

وتجلى تأثير الاستشراق في الفكر العربي من خلال التأليف والمجلات والندوات والمؤتمرات:

أ- التأليف:

اهتم المستشرقون بتأليف الكتب الفكرية والنقدية والأدبية وبخاصة تلك التي ترصد تاريخ الأدب العربي، ومن أهم الكتب التي أضاءت جوانب عدة جوانب من الأدب العربي وعرفت به نجد كتاب "تاريخ الأدب العربي" لكارل بروكلمان، الذي نشره بألمانيا سنة 1892م ودائرة المعارف الإسلامية: التي ظهرت أول طبعة لها باللغات الثلاث؛ بالإنجليزية والفرنسية والألمانية وقد صدرت في الفترة 1913-1938م، غير أن الطبعة الجديدة قد ظهرت بالإنجليزية والفرنسية فقط من عام 1945-م وحتى عام 1977م. والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف والذي يشمل الكتب الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل وقد وضع في سبعة مجلدات نشرت ابتداء من عام 1936م. وقد بلغ ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف قرن (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب.

و كان لهذه المؤلفات أثر واضح في ظهور بعض الكتب النقدية لكتاب عرب نسجوا على منوال المستشرقين، فصدرت مجموعة من الكتب التي تدرس الأدب

وتاريخه، وكان أول من قام بالتأليف في هذا الميدان، محمد دياب حيث قدم كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) للطبع سنة 1897م ونشر عام 1900م، يقول في مقدمة الكتاب" فقد أخبرني فيما سلف صديق يعرف الألمانية أن مستشرقي الألمان عنوا بتاريخ آداب لغتنا العربية فوضعوا فيه كتابا ذا أسفار مطبوعا بلغتهم، وود الصديق لو يؤلف بالعربية مثل هذا الكتاب فلاح بخاطري أن أشق عباب هذا الموضوع الجليل"(محمد دياب، ص ب).

واستجاب محمد دياب لرغبة صديقه واضعا هذا الكتاب الذي يطبق المنهج التاريخي ذاته الذي اعتمده المستشرقون الألمان. ثم تلاه كتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) لحسن توفيق العدل الذي طبع سنة 1904م وقد تأثر مؤلفه في وضعه لهذا الكتاب أيضا بالمستشرقين الالمان والانجليز، ذلك أنه درس بألمانيا كما اشتغل أستاذا للغة العربية بجامعة كمبريدج بإنجلترا، وقد تأثر بكتاب بروكلمان من حيث تقسيم الأدب العربي إلى عصور تابعة للعصور السياسية (عبد العزيز الدسوقي، 1977، ص183-184.) ثم ظهر بعده كتاب "تاريخ آداب اللغة العربية" لجورجي زيدان سنة 1911م.

ومن هذه الكتابات الرائدة في مجال الدراسات النقدية أيضا نجد كتاب " كتاب علم الأدب" للأب لويس شيخو سنة 1886 الذي بدا فيه أول تعريف جديد للنقد أو النقد البياني كما أطلقه عليه والذي ميز فيه بين المعني اللغوي وهو "النظر في الدراهم لتمييز جيدها من فاسدها" والمعنى الاصطلاحي والذي يعني "تفقد التآليف الأدبية بالبصيرة لبيان محاسنها وغرائبها والدلالة على مغالطها وشوائبها".

كما يعد كتاب «منهل الوراد في علم الانتقاد» الصادر سنة 1907 لقسطاكي الحمصي علامة من علامات تطور النقد الأدبي الحديث، لما فيه من أساليب وطرائق

تأثر فيها صاحبه بالأساليب والمناهج الغربية. ويعد منهل الوراد أول كتاب باللغة العربية يعنى بالنقد النظري، تعرض فيه صاحبه إلى نظريات النقد الأوروبي واليوناني والروماني بشكل منظم ومرتب. كما يعد أول كتاب عربي في مطلع القرن العشرين يرى أن النقد الأدبي علم له أصول وقواعد. وقد قسمه مؤلفه إلى قسمين؛ قسم أول خاص بتاريخ النقد وموضوعاته وقسم ثان خاص بقواعد النقد وفروعه كما عني بالنقد التطبيقي، وتقسيم الفنون الأدبيةتقسيماً جديداً يهتم بالمسرحية والملحمة والقصة والرواية والمقالة، أي أن جنس القصة والرواية ورد ذكرهما باسمهما الصريح لأول مرة.

يقول قسطاكي الحمصي في مقدمة كتابه هذا مبرزا منهجه المتأثر بالمناهج الغربية وبخاصة الفرنسيين، ومعربا عن الصعوبات التي واجهته: "وإني لم أزل منذ ستة عشر عاما أتتبع سير هذا الفن الجليل مكباً على مطالعة كتب من الفرنسيس أصحاب الباع الطويل، حتى صار ذلك هوى النفس لا تنزع إلا إليه وشاغل الطرف لا يحب أن يقع إلا عليه وفي خلال ذلك كنت أقلب القديم والحديث من كتب العرب لعلي أظفر بشيء مترجم عن اليونان، أو بكنز فكر في بعض الزوايا، احتجبت فلم أفز بالضالة المنشودة ولا يجد المرء معدوماً وإن بذل مجهوداً فكاتبت في ذلك بعض الإخوان والأدباء وجهابذة العصر وأئمة العلماء في الشام والأقطار المصرية وغيرها من البلاد العربية لعلهم يكونون قد عثروا على شيء من ذلك فكانت أجوبتهم مكذبة رائد الآمال هنالك.."(قسطاكي الحمصي، 1907م. ص3)

ويواصل شرح معاناته في كتابة هذا المؤلف "وهنا لا بد لي من أن أقص على القارئ ما دهاني من الحيرة الاضطراب عند أخذي القلم لتأليف هذا الكتاب إذ كل ما كنت أطلعت عليه من كتب هذا الفن في اللغة الفرنسوية لا ينطبق على ما عقدت على تأليفه النية إلا من وجه خفي.. فإن جميع ما قرأته لجهابذة هذا الفن المشهورين

مثل سنت بوف وريتان وتين وفردينان وبرونيير وإميل فاجيه، وجول لومتير وأدولف بريسون، وغيرهم من المعاصرين لا يتعدى نقد مؤلفات وموضوعات ومتفننين" (قسطاكي الحمصي، 1907م. ص5)

كما كان للمقالة دورها في تطور النقد الأدبي العربي ومن المقالات الأولى التي عنيت بهذه الدراسات الأدبية متأثرة بمنهج الغرب مقالة يعقوب صروف التي عنونها بالانتقاد وحاول فيها الموازنة بين النقد الغربي والنقد العربي، مشيرا إلى عدد من النقاد المشهورين في فرنسا وإنجلترا وأمريكا وإيطاليا (يعقوب صروف، 1887، ص164.)

وتتابعت المقالات التي تعتمد على منهج المقارنة بين الأدبين الغربي والعربي، ورغم أنها أحيانا تقتصر على عرض بعض الآراء والمواقف النقدية التي لا تصل إلى درجة تبني منهج بعينه، فإنها فسحت المجال لدراسة أدب غير الأدب العربي وطرحت مقولات أخرى تنم عن معرفة حقيقية بالأدب الغربي ونقده. وتعد مقالة نجيب الحداد التي نشرها بمجلة المقتطف سنة 1897م والتي عنونها بـ (مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي) نموذج لهذه المقالات التي اتخذت من المقارنة منهجا للدراسة حاول من خلالها تبيان الفروقات الموجودة بين الشعر العربي والغربي وعن دوافع كتابة هذه المقالة يقول نجيب الحداد: " وقد سألني من لا يسعني مخالفته أن استعين بما توصلت إليه من قراءة الشعرين العربي والإفرنجي على وضع مقالة في هذه المجلة الغراء أبين فيها المقابلة بينهما وأتكلم عن الفروق بيننا وبين أهل الغرب في معاني الشعر وأنواع إيراده وأذواق ناظميه وطرائق البيان في مآخذه وإبراز المقاصد منه إلى ما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية والمعنوية عند الفريقين ".(نجيب الحداد،1897م، ص 300.)

ونجحت هذه المقالة ومثيلاتها بالرغم من بساطتها وقلتها إلى إبراز ما وصلت إليه المجتمعات الغربية من تقدم في مجال تشريح الأدب ونقده.

ب- المجلات والدوريات:

اهتم المستشرقون بالصحافة وتأسيس المجلات والدوريات اهتماما بالغا، فلا يكاد يخلو قسم من أقسام دراسات الشرق الأوسط الكبيرة في الجامعات الغربية إلاّ وله مجلة أو دورية، إضافة إلى إصدارات الجمعيات الاستشراقية التي تتخذ من المجلات لسان حال لها تروج بها لأفكارها وأهدافها، وتعد المجلات الاستشراقية بالمئات وبمختلف اللغات نذكر منها على سبيل المثال :

- مجلة ينابيع الشرق أصدرها هامر برجشتال في فيينا من 1809 إلى 1818م.
- مجلة الإسلام الصادرة بباريس عام 1895م ثم خلفتها عام 1906م مجلة العالم الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية.
- مجلة عالم الإسلام ظهرت في بطرسبرج عام 1912م
- مجلة العالم الإسلامي أنشأها صمويل زويمر ت1952م في بريطانيا سنة 1911م وقد كان زويمر هذا رئيس المبشرين في الشرق الأوسط.
- مجلة العالم الإسلامي من معهد هارتفورد اللاهوتي بالولايات المتحدة الأمريكية.
- دورية مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن
- دورية جسور تصدر عن مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس.
- مجلة العالم الإسلامي (بالألمانية) من ألمانيا
- مجلة العلاقات النصرانية الإسلامية عن معهد العلاقات النصرانية الإسلامية بجامعة بيرمنجهام ببريطانيا.

وهذه المجلات غالبا ما تصدر عن مراكز بحوث ودوائر سياسية واجتماعية ودينية خاصة وفق استراتيجيات مدروسة تخرج من مخابر أو خلايا بحث

متخصصة أو ما يطلق عليه باللغة الإنجليزية Think Tanks، وهي منظمات قومية غير ربحية وغير حكومية تهدف لتقديم المشورة والإعداد لاستراتيجيات ثقافية وأمنية وغيرها.(عبد الله يوسف سهر محمد، 2001، ص39-67)

ج– المؤتمرات والجمعيات:

تعد الندوات والمؤتمرات والملتقيات وما يصاحبها من محاضرات ودورات العلمية وورشات البحث من آليات المستشرقين في نشر مواقفهم وآرائهم، وقد عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في العاصمة الفرنسية باريس سنة 1873م، ثم تتابع انعقاد هذا النوع من الفعاليات والتظاهرات حتى تجاوز عددها الثلاثين مؤتمرا دوليا ناهيك عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا عام 1849م، وما تزال بعض هذه المؤتمرات قارة تعقد سنويا حتى الآن، يحضر ها مئات المستشرقين من العلماء، حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمائة (900) عا لم من خمس وعشرين دولة وثمانين جامعة وتسع وستين جمعية علمية.

وإضافة إلى هذه الملتقيات عكف المستشرقون على تأسيس الجمعيات التي تمنح لهم الإطار القانوني للعمل تحت غطائها، ومن أجل ذلك ظهرت العديد من الجمعيات الاستشراقية كالجمعية الآسيوية في باريس التي تأسست عام 1822م، والجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وإيرلندا عام 1823م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام 1842م، والجمعية الشرقية الألمانية عام 1845م. وكلها تعمل على التأثير على رؤية الشرق للعا لم من خلال زرع الأفكار الغربية في المجتمع العربي، وبث روح الغرب وعقيدته في عقل ووجدان أبنائه.

خاتمة

إن تظافر كل هذه العوامل الخارجية منها والداخلية، إضافة إلى مؤثرات وعوامل أخرى قد تكون أقل تأثيرا كالتبادُلات التجارية والبعثات الدبلوماسية، والرحلات الاستكشافية والرحلات السياحية، وحركة التفاعل فيما بينها وبين مختلف الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية في الوطن العربي وفي الضفة الأخرى من العالم الغربي، إضافة إلى التحولات الداخلية في الأقطار العربية بخاصة بمصر ولبنان والعراق والشام هو ما أنتج هذا الكم المعرفي النقدي لدى النقاد العرب. وهو ما فتح الآفاق لمجموعة من المدارس النقدية الغربية على غرار مدرسة النقد الجديد الأنجلو-أمريكية، والمدرسة البنيوية والمدرسة التفكيكية وغيرها من المدارس التي تبناها النقاد العرب وحاولوا تطبيق مبادئها على النصوص الأدبية العربية كي تحط بالساحة العربية ويكون لها ذلك التأثير البارز، ذلك أن الاحتكاك الحضاري والمثاقفة والتواصل بين المجتمعات والشعوب كان وسيظل منبعا لإنتاج المعرفة في أسمى معانيها فكرية أو إبداعية أو نقدية.

المراجع

- Edward Said: Orientalism, Vintage Books, New York 1979,.
- جريدة الحياة، العدد 10005– تاريخ 1990/6/15 من مقابلة أجراها مع جبرا–محمد عبد الواحد– القاهرة.
- حلمي مرزوق: تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر في الربع الأول من القرن العشرين، دار النهضة العربية، بيروت 1983م.
- سليمان حسين: ضمرات النصِّ والخطاب دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.
- شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، تر:محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978م.
- شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، 1992.
- صمويل دبليو أوديل Samuel W. Odell: الحرب الاخيرة او انتصار اللسان الإنجليزي نقلا عن: – مايكل كرونين: الترجمة والعولمة، محمود منقذ الهاشمي وعبد الودود بن عامر العمراني، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010.
- عبد العزيز الدسوقي: تطور النقد العربي الحديث في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة 1977.
- عبد الله يوسف سهر محمد: مؤسسات الاستشراق تجاه العرب والمسلمين، دراسات استراتيجية عدد 57، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط1، الإمارات، 2001، –
- عز الدين الأمين: نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، ط2، دار المعارف،، القاهرة 1970،
- عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، دار الفكر العربي، بيروت، ج2، –.
- قسطاكي الحمصي: منهل الوارد في علم الانتقاد،ج1، مطبعة الأخبار، القاهرة 1907م.
- محمد دياب: تاريخ آداب اللغة العربية، ص (ب).

- منيف موسى: نظرية الشعر عند الشعراء النقاد في الأدب العربي الحديث.
- نجيب الحداد: مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي، البيان، السنة الأولى الجزء (7) أكتوبر 1897م.
- يعقوب صروف: الانتقاد، ، المقتطف، السنة الثانية عشر، الجزء (3) ديسمبر 1887.